الفصل الحادي عشر

نادي المدارس العليا وتطور الأفكار (سنة ١٩٠٥ و١٩٠٦م)

تفتحت في قلوب الشباب زهرة الوطنية التي أنبتتها دعوة مصطفى كامل، وأخذت تجيش بالشعور الوطني وتتحرك نحو أغراضه وأهدافه، وبدأت علائم اليقظة والحياة تظهر فيهم بشكل عملي سنة (١٩٠٥م)، وكان أول مظهر لهذه الحياة الجديدة أن فكر طائفة منهم في إنشاء ناد للمدارس العليا، يجمع بين طلبة هذه المدارس ومتخرجيها.

كان هذا النادي من أعظم مظاهر الحركة الوطنية في ذلك العصر، وصار بمثابة معهد وطني علمي أخلاقي تكوَّن فيه جيل من خيرة الشباب المصري، وفيه ظهرت حركة فكرية قومية أنتجت على توالي السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير على النهضة الوطنية، فقد ظهرت فيه قوة الشبيبة ووحدتها، وامتزج الطلبة بالمتخرجين، فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكري والمعنوي، وفيه ألفى أعلام الفكر والعلم المحاضرات القيمة في مختلف العلوم والفنون، وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال وفي قاعاته اجتمعت وقتًا ما لجنة إنشاء الجامعة المصرية، وفيه تأسست مدارس الشعب فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة، وقام أعضاء النادي بالتدريس فيها، وفيه نشأ مشروع النقابات الزراعية على يد المرحوم عمر بك لطفي، وفيه أخذ الطلبة يروضون أنفسهم على الأخلاق والفضائل والتضامن، وكان فوق ذلك معهدًا قوميًّا لنشر المبادئ الوطنية الصادقة وبثها في نفوس الجيل.

التفكير في إنشاء النادي (سنة ١٩٠٥م)

بدأ التفكير في إنشاء النادي سنة (١٩٠٥م)، وتألفت لجنة لتأسيسه في أكتوبر من تلك السنة برياسة الدكتور عبد العزيز نظمي بك، فأخذت تجمع الاكتتابات لتكوين

رأس ماله، وعضدها (اللواء) في مهمتها، وحث الفقيد الأغنياء على المساهمة في الاكتتاب فيه، قال في عدد (١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٥م):

«نرى من أوجب الواجبات إعانة هذا النادي ممن يقدرون العلم وذويه، ولذلك نود أن يقتفي الكبراء والعظماء والوجهاء أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا به لهذه الغاية الشريفة حتى الآن، وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادي المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عنده كثرة وقلة، فنستنهض همم السراة لمدِّ يد المعونة إلى هذا النادي الذي سيكون محط رحال أبنائهم».

وقد بلغ ما جمع لتأسيسه مع ربح ليلة تمثيلية أقامتها اللجنة بدار التمثيل العربي (٢٨١) جنيهًا، وذلك إلى آخر نوفمبر سنة (١٩٠٥م).

أول جمعية عمومية للنادي

واجتمعت أول جمعية عمومية للنادي بهيئة جمعية تأسيسية يوم (الجمعة ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥م) بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس إدارة النادي، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتي طالب، من مختلف المدارس العليا، وكذلك حضره لفيف من المتخرجين، وقد اشتركت في هذا الاجتماع إذ كنت طالبًا بمدرسة الحقوق ومن المشتركين في تأسيس النادي، وأسفرت عملية الانتخاب عن اختيار المرحوم عمر بك لطفي رئيسًا للنادي، وكان من خاصة أصدقاء الفقيد، وموضع الاحترام بين مواطنيه، فأسبغت رياسته على النادي مهابة واحترامًا، وانتخب هو وعبد الخالق بك ثروت (باشا) عضوين بالمجلس عن متخرجي مدرسة الحقوق، وأمين سامي بك (باشا) وأحمد عزي بك عن متخرجي مدرسة المهندسخانة، والدكتور عبد العزيز بك نظمي والدكتور عبد المجيد محمود عن متخرجي الطب، ومحمد علي دلاور بك وعلي حسني المصري عن متخرجي مدرسة المعلمين والألسن، وإسماعيل أفندي زهدي (بك) وأحمد أفندي أمين (بك) عن طلبة الحقوق، وحافظ أفندي عفيفي (باشا) وفؤاد أفندي صدقي عن طلبة الطب، وسامي أفندي عصمت (بك) ونجيب أفندي مرتضى

عن طلبة المهندسخانة، وأخذ مجلس الإدارة يوالي جمع الاكتتابات من الطلبة والمتخرجين، ويعد معدات افتتاحه حتى اكتملت هذه المعدات في (مارس سنة ١٩٠٦م).

حفلة افتتاح نادى المدارس العليا — ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (انظر ص ١٩١)

وترى فى الصدر : المرحوم عمر بك لطفى رئيس النادى وعن يمينه المرحوم عبد الخالق ثروت باشا . وعن يساره المرحوم حسن بك رضا . والمرحوم على بك حسنى المصرى . المرحوم اسماعيل بك زهدى . المرحوم احد بك أمين المستشار . سامى بك عصمت . ومن الجالسين فى الصف الاول الدكتور عبد العزيز نظمى بك . محمد بك على دلاور . ومن الجالسين فى الصف الثانى المرحوم هارون سليم باشا المرحوم الدكتور محمود فتحى الحامى — الاستاذ السيد حسين . ومن الجالسين فى الصف الثالث عبد الرحمن بك الرافعى . مصطفى بك الشوربجى المستشار . الدكتور احمد بك سعيد . الدكتور سيد بك شكرى . هاشم بك سهمى . وهيب بك دوس . نبيه بك سلام . إلخ

افتتاحه

واتخذ النادي دارًا له بالمنزل رقم (٤) بشارع قصر النيل بالقرب من (سافواي أوتيل) القديمة، وافتتح يوم (الخميس ٥ إبريل سنة ١٩٠٦م) وكان الاحتفال بافتتاحه يومًا مشهودًا؛ إذ حضره الأعضاء المشتركون فيه من الطلبة والمتخرجين، وكان الطلبة هم قوام النادي، وحضر الاحتفال من رجال الحكومة حسين فخري باشا وزير المعارف وقتئذ ويعقوب أرتين باشا وكيلها «والمستر دنلوب مستشارها، والمستر متشل أنيس وكيل وزارة المالية، ومحمود صدقي باشا محافظ العاصمة ونظار المدارس العليا ووكلاؤها، وخطب في الاحتفال عمر بك لطفي رئيس النادي معلنًا

افتتاحه، ثم أعقبه فخري باشا وزير المعارف فألقى خطبة ترحيب بتأسيسه، ولما أتم خطبته صدحت الموسيقى العسكرية وطاف المدعوون بغرف النادي وأبهاءه؛ فأعجبوا بحسن تنسيقه ونظامه، وكان بناء فخمًا، تحيط به حديقة غناء، وبه غرف واسعة، بعضها للجلوس، وبعضها لتلاوة الصحف والمجلات، وبعضها للبلياردو والألعاب المباحة، وفيه غرفة فسيحة للمكتبة جمعت عددًا كبيرًا من الكتب العلمية النفيسة، وكان من مبادئه منع الميسر والخمر منعًا مطلقًا.

واطرد الإقبال على النادي، فكان عدد أعضائه حين تأسيسه (٢٤٠) عضوًا بين طلبة وخريجين، فلم يأت (آخر ديسمبر سنة ١٩٠٦م) حتى بلغوا (٤٧١)، وبلغوا (٥٤٩) في (آخر ديسمبر سنة ١٩٠٧م)، و(٦٨٥) في (آخر ديسمبر سنة ١٩٠٨م)، و(٧٧٣) في (آخر ديسمبر سنة ١٩٠٩م)، أي زادوا على ثلاثة أمثال عددهم الأول.

وقد بعث تأسيس هذا النادي روحًا جديدة من التضامن والود بين الطلبة بقيت تجمع بينهم على مر السنين، وكان ينظم رحلات رياضية يشترك فيها الطلبة وبعض المتخرجين؛ فقويت روابط الألفة بينهم باجتماعاتهم اليومية في النادي، ورحلاتهم الرياضية التي كانوا يقومون بها مجتمعين، وظل النادي قائمًا يؤدي مهمته خير الأداء، حتى أقفل بأمر السلطة العسكرية البريطانية في أوائل الحرب العامة الأولى سنة (١٩١٤م).

افتتاح نادى المدارس العليا — ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (صورة أخرى للحفلة) انظر ص ١٩١

وترى من الجالسين فى الصف الاول المرحوم عمر بك لطفى (فى الصدر) . سامي بك عصمت . توفيق باشا رفعت . على بك حسنى المصرى . محمد بك على دلاور ، الدكتور عبد العزيز بك خطمى . الدكتور وجيه راشد . الدكتور على بك حلمى . الدكتور حافظ عفيفي باشا . الاستاذ صالح جودت . الاستاذ بديع قرية . ومن الجالسين فى الصف الثانى : الدكتور سالم هنداوى بك . الدكتور كامل سامى . فؤاد بك أنور المستشار . هارون سليم باشا . الدكتور الأستاذ محمود فتحى . الدكتور توفيق بك عمر . ومن الواقفين فى الصف الثالث : أمين بك الرافعى . الصادق بك حسين . محمد بك فايز . الاستاذ حاتم يوسف العسكرى . نبيه بك سلام . احمد بك عبد القادر . الاستاذ عبد المقصود متولى . ابراهيم بك راتب . سعيد باشا العزبى . محمد بك شركس . حسن بك زكى المستشار . وفى الصف الرابع . الدكتور سيد كامل الخ

إضراب طلبة الحقوق (فبراير سنة ١٩٠٦م)

كان طلبة الحقوق أول من تشبعوا بالروح الوطنية التي بثها الفقيد في الشباب، وظهرت هذه الروح في تبرمهم بالنظام الذي وضعته وزارة المعارف في يناير سنة (١٩٠٦م)، وكان الغرض منه استفزاز شعورهم والتضييق عليهم ومعاملتهم بنظام المدارس الابتدائية والثانوية؛ فأضربوا عن الدراسة في (فبراير سنة ١٩٠٦م) احتجاجًا على هذا النظام، وقد ساهمتُ في هذا الإضراب واشتركت فيه؛ إذ كنتُ من طلبة الحقوق المتذمرين، وكانت طلباتنا العدول عن النظام الذي وضعته الوزارة، والرجوع إلى النظام القديم، وكنا على حق في تذمرنا ومطالبنا، وليس أدل على ذلك مما كتبه الأستاذ «إدوار لامبير» ناظر مدرسة الحقوق[1] في مقالته التي نشرها عقب استقالته سنة (١٩٠٧م)، وسيأتي بيانها بالفصل الثالث عشر؛ إذ قال: «إن المستر

(١) عين ناظرًا لمدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر سنة ١٩٠٦م خلفًا للأستاذ «جرانمولان» الذي وقع الإضراب في عهده.

دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظامًا من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية، وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية، ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دنئ؛ فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية، وأن يسود أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية، وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلًا للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا».

كان هذا الإضراب هو الأول من نوعه؛ لأنه شمل مدرسة عالية بأسرها، وكان موجهًا ضد سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال، وقد أجمع الطلبة جميعًا على الانقطاع عن الدراسة، وألفوا لجنة تمثل جميع فرق المدرسة لتنظيم حركة الإضراب، وعقدوا اجتماعًا في حديقة الأزبكية يوم (٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦م) ألقيت فيه الخطب، وتعاهدنا فيه على التضامن واستمرار الإضراب حتى تجاب مطالبنا، فكان لهذا الإضراب ضجة في البلاد، وتدخل اللورد كرومر في شأنه، وأمر وزارة المعارف بأن تأخذ الطلبة بالشدة، فأعلنت الوزارة تعطيل الدروس في المدرسة من يوم (٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦م) حتى يوم (السبت ٣ مارس)، وأنذرت الطلبة بأن من يتأخر عن الحضور في ذلك اليوم يفصل من سلك التلاميذ، وانتقد «اللواء» هذا القرار وقال: إنه قرار يوجب أشد الانتقاد؛ لأنه يؤدي إلى إبطال تعليم الحقوق في مصر إذا أصر الطلبة على الإضراب.

واتخذ الطلبة «جريدة اللواء» لسان حالهم في نشر ظلامتهم من معاملة الوزارة إياهم، فكان هذا الإضراب هو المرحلة الأولى لعملية اتصال طلبة المدارس العالية بالحركة الوطنية، وتشبعهم بالمبادئ الاستقلالية، وتبعهم في هذا الاتصال طلبة المدارس العالية الأخرى، لما أبدوه من العطف على طلبة الحقوق وتأييدهم، وقد أخذ الإضراب من هذه الناحية صيغة عامة؛ إذ كان دليلًا عمليًّا على فساد نظام التعليم أدى

إلى سخط الطلبة وضيق صدورهم من سوء معاملة الوزارة إياهم، وكان بمثابة احتجاج على هذه المعاملة، وقد قابلته الحكومة بالشدة لكي تقمع الروح الجديدة التي ظهرت في صفوف الطلبة، وفي ذلك كتب الفقيد تحت عنوان (مسألة الطلبة) مقالة جاء فيها:

«قضت البلاد أسبوعًا كاملًا وهي شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية في مقدمة أمورها الحيوية، وأن لناشئتها المحل الأول من عنايتها، وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها. لقد أظهر إضراب الطلبة أمورًا جمة وأنتج نتائج عدة، أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياستها وسوء إدارتها وعدم كفاءة المديرين لها، أظهر أن الطلبة كلهم ولدوا في عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظامات التي وضعها ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جبناء أذلاء؛ بل إنهم ذوو إباء وشمم وعواطف راقية وإرادة حقيقية، أظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد والاتفاق، غيورون على حقوقهم، محبون للعدالة، متشربون بروح الاستقلال».

وقد انتهى الإضراب برجوع الطلبة إلى المدرسة يوم (السبت ٣ مارس سنة ١٩٠٦م) بناء على وعد المستشار القضائي بالنظر في طلباتهم. وأراد الاحتلال تثبيت مركز المستر دنلوب، وكان إلى ذلك الحين سكرتيرًا عامًّا لوزارة المعارف، وعليه تقع مسئولية إخلال نظام التعليم الذي أدى إلى إضراب طلبة الحقوق، فرقي مستشارًا للوزارة في (مارس سنة ١٩٠٦م) مكافأة له على أخذ الطلبة بالشدة.

حادثة العقبة (مايو سنة ١٩٠٦م)

ظهرت في سنة (١٩٠٦م) حادثة سياسية مهمة هزَّت أعصاب الأمة، ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجلاء على بساط البحث والمنافسة، ونعني بها حادثة العقبة، وتسمي أيضًا حادثة (طابة)، وبيانها أن تركيا اعتزمت في تلك السنة مد سكة حديدية من معان إلى العقبة، وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر،

وتهدد مركز الاحتلال الإنجليزي، فاهتم الإنجليز لهذا الحادث، وأرسلوا ضابطًا كبيرًا عهدوا إليه وضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش إلى العقبة، باعتبار أنها من أملاك مصر؛ إذ هي جزء من طور سيناء المعهودة إدارتها إلى مصر، ولكن الجنود التركية احتلت موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربي العقبة، وقام لذلك خلاف شديد بين تركيا وإنجلترا، ظهرت فيه بمظهر الدولة الحامية لمصر، إذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءًا من أملاكها، فكان هذا المظهر من علامات الحماية، مما أثار سخط الفقيد، فاستنكر موقف إنجلترا من هذه الحادثة ودعا الإنجليز إلى الجلاء عن مصر بدلًا من أن يتظاهروا بالدفاع عن حقوقها، وكانت تركيا ترمي بعملها هذا إلى فتح باب المسألة المصرية من جديد لإجبار إنجلترا على الوفاء بعهودها في الجلاء، ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها في هذه الحادثة، إذ كان شبيهًا من بعض الوجوه بموقف فرنسا في حادثة فاشودة، وقد كانت تركيا تتولع أن تؤيدها بعض الدول الأوربية في فتح باب المسألة المصرية، ولكن فرنسا كانت بحكم «الاتفاق الودي» مؤيدة لإنجلترا، وطلب سفيرها في الأستانة من الحكومة التركية الإذعان لمطالب إنجلترا، ووقفت روسيا موقفًا يشبه موقف فرنسا، ولزمت ألمانيا الجمود حيال هذا الخلاف، مما جعل تركيا تجنح للتراجع، وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابة في (مايو سنة ١٩٠٦م)، وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة (معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م) وتلغراف (٨ إبريل سنة ١٨٩٢م) المرسل إلى الخديوي عباس الثاني والذي خول مصر إدارة شبه جزيرة طور سينا[1]، وانتهت اللجنة من عملها في أول كتاب (أكتوبر سنة ١٩٠٦م)، إذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطًّا ممتدًّا من (رفح) على البحر الأبيض المتوسط إلى نقطة واقعة غربي العقبة بثلاثة أميال، وبقيت طابة ضمن أملاك مصر، والعقبة من أملاك تركيا.

(١) فصلنا الكلام عن هذا التلغراف وعن أزمة (فرمان سنة ١٨٩٢م) في الفصل السادس عشر.

وقد جاءت حادثة العقبة دليلًا ساطعًا على كراهة الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التي انتحلتها إنجلترا على مصر، وبرهانًا جليًّا على انتشار التعاليم الوطنية التي بثها الفقيد في النفوس.

زيادة جيش الاحتلال

كان من نتائج شعور الكراهية الذي بدا من المصريين حيال الاحتلال في حادثة العقبة أن قررت الحكومة البريطانية زيادة عدد جيش الاحتلال، فزاد من (٢٩٠٦) جنديًّا إلى (٤٧٥٨)، وزادت النفقات التي تتحملها مصر في هذا الصدد من (٩٧٥٠٠) جنيه إلى (١٤١٣٧٥) جنيهًا، وجاءت هذه الزيادة دليلًا على اتساع الهوة بين الأمة والاحتلال وتفنيدًا لمزاعم أنصاره الذين كانوا يرجفون بأن الأمة راضية عنه موالية لحكمه.

obeikan.com